



بلزك

## الحب الأول .. والحب الأخير



ولد بلزك عام ١٧٩٩ بمدينة تور الفرنسية ونشأ بلزك في أسرة تعاني من الاضطراب ، وعدم التماسك فقد كانت أمه تصغر عن أبيه بحوالى ٣٢ عاماً وقد اضطرت للزواج منه تحت ضغط أسرتها ، فقد كانت أسرة فقيرة وكان هو موظفاً محترماً في الجيش ، وجاء بلزك ليجد كماً من عدم التفاهم جمع بين أمه وأبيه.

كانت أمه عصبية وقاسية ، وكان الأب كثير الأحلام ويعيش مع الخيال أكثر مما يعيش في واقع حياته .

لم يكن بلزك متفوقاً في الدراسة بل كان دائم السرحان أثناء الدروس مما جعل المدرسين يائسين منه ، ولا ينتظرون منه نتيجة ، ولكنه استطاع

أن ينهى دراسته ، وقد درس القانون وكان أهله يشجعونه على دراسة القانون ، ويمتهن القضاء أو النيابة فهذه المهن مهن محترمة ، ويمكن أن تنقذ الأسرة من الظروف الاقتصادية الصعبة ، ولكن بلزك رفض ذلك لأنه كان يعشق الأدب، وعرف أنه خلق ليكون أديبًا، وحاول أن يقنع أسرته أنه يستطيع الكسب من عمله الأدبي.

تكونت عند بلزك عقدة منذ الطفولة بسبب قسوة أمه ، وظروف المعيشة الصعبة والفقر الذى عاناه هو وأسرته ، وكان وقتها يعتقد أن أمه لا تحبه بسبب معاملتها القاسية له .

وعندما بلغ بلزك عشرين سنة ، انتقل إلى باريس وكان مثله الأعلى آنذاك نابليون ، فقد أعجب بشخصية نابليون ، وبطولاته ، وأراد أن يحقق بقلمه ما حققه نابليون بسيفه .

استأجر بلزك غرفة فوق سطح إحدى البنايات فى حى فقير من أحياء باريس، وكان ذلك فى بداية حياة بلزك الأدبية ، ويصف المؤرخون هذه الغرفة بأنها " رديئة " ، ولكن بلزك احتل حياته الجديدة فيها بعزم وعناد ، فكان ينظف الغرفة بنفسه ، ويذهب لشراء الطعام الرخيص حتى يوفر ما يمكن أن يتكلفه فى المطاعم ، حتى الماء كان يذهب لإحضاره من نافورة " سان ميشيل " كى لا يتكلف ثمن شرائه ، ولم يكن كل ذلك ليثبط من عزيمته ، وكان يتعزى عن شقائه بالتطلع من نافذة غرفته الصغيرة إلى أضواء باريس ، متأملًا سحرها، حالمًا بذلك المجد الأدبى الذى يرجوه ، حتى يصبح علمًا بين نجوم تلك المدينة التى امتلأت سماؤها بأسماء أعظم

رجال الأدب والفكر فى مختلف العصور .

وبالرغم من هذه البداية القاسية إلا أن بلزك واصل العمل ، وكافح من أجل تحقيق أهدافه ، والحلم الذى كان يحلم به .

ولكن ظلت عقبة المال ، تقف حائلاً دون تحقيق هدفه ، فهو بحاجة للمال لى يتفرغ إلى محاولاته الأدبية ، فبدون مال لن يستطيع دفع إيجار الحجره ، ولا حتى ثمن الطعام ، وخاصة بعد أن قررت أسرته عدم إرسال أى نقود له ، وتركته يعتمد على نفسه ، وقد حاول بلزك كتابة أفكاره الأدبية الأولى وعرضها ، ولكنها لم تلق نجاحاً يؤمن له دخلاً يعيش به .

وفكر بلزك فى الانتحار لعله يتخلص من حياة البؤس والشقاء والحاجة إلى المال ، وعدم التفرغ لتحقيق حلمه بالتفرغ للأدب الذى لا يرضى عنه بديلاً ، وكان قد تعرف فى ذلك الوقت على سيدة فرنسية فى الخامسة والأربعين من عمرها ، تقريباً فى عمر أمه وكانت هذه السيدة اسمها دوبيرنى وقد تعاطفت معه وأحست أنه عبقرى ، وأنه يخطو خطواته الأولى نحو النجاح والقمة ، ومع هذه السيدة وجد بلزك معنى للحياة وأحبها وبادلتها نفس شعوره ، وعندما قرر الانتحار ذهب إليها فأخذت تحدثه عن الأمل وعدم اليأس وتشجعه بكلمات رقيقة حتى تخلى تماماً عن فكرة الانتحار وواصل مشواره ومحاولاته الأدبية ، وقد أثرت علاقته بهذه المرأة التى عوضته عن حنان أمه الذى افتقده منذ صغره ، أثرت تأثيراً واضحاً على كتاباته عن المرأة ، كتاباته التى أصبح لها صدى فى أنحاء فرنسا ، بل وأوروبا كلها ومازالت حتى الآن تحتل مكانة رفيعة فى عالم الأدب .

ويقول زفايج وهو الذى كتب قصة حياة بلزاك : " إن علاقة بلزاك العاطفية بمدام دوبيرنى هى التى دفعته إلى أن يكتب كلمته الخالدة " ليس إلا الحب الأخير للمرأة الذى يستطيع أن يرضى الحب الأول للرجل " وأثر هذا الحب على رأى بلزاك فى المرأة ، فالمرأة النموذجية فى نظر بلزاك هى تلك المرأة التى تخطت الثلاثين والتى تكون بمثابة الأم الحنون التى تغمر شريكها بالحب والحنان ، وتأثرت بالطبع كتابات بلزاك ورواياته بهذه المرحلة فرسم للمرأة التى تخطت الثلاثين صوراً فريدة مما جعل له معجبات كثيرات فى هذه المرحلة . "

وكان لبلزاك فلسفة " إن المرأة ذات الأربعين تعطيك كل شىء ، أما ذات العشرين فلا تعطيك شيئاً على الإطلاق . "

تلك هى نظرة بلزاك للمرأة كما يصفها " زفايج " والسبب فى هذه النظرة كانت مدام دوبيرنى التى أنقذته من الانتحار ، وأعطته الدفعة التى بدأ منها حياته الأدبية ، وأعطته العطف والحنان الذى حرم منهما .

ولكن ظلت مشكلة المال قائمة بالنسبة لبلزاك ففكر فى أن يقتحم مجال التجارة ليحل مشاكله المادية ، وبذلك يستطيع أن يتفرغ لحياته الأدبية كما أراد ، فأنشأ داراً للنشر ومطبعة ، ووضع تخطيطاً دقيقاً لاستيراد الأخشاب إلى فرنسا ، كما فكر أيضاً فى مشروع لاستخراج الفضة من بعض المناجم الإيطالية القديمة ولكن بلزاك لم ينجح فى أى مشروع خطط له وغرق فى الديون ، وأصبح مدينًا بنحو ١٢٥ ألف فرنك ، وكان هذا المبلغ فى عام ١٨٢٨ مبلغًا شديد الضخامة كفيلاً بأن يقضى على حياة صاحبه .

ويقول المؤرخون: إن مشروعات بلزك كانت فى البداية أفكاراً خلاقة وذكىة، وأى مشروع منها كفىل بأن يجعله مليونيراً ولكن بلزك كأديب كان عاجزاً عن رؤية التفاصيل الواقعية ، فمثلاً عندما أراد تنفيذ مشروع مناام الفضة فى إيطاليا أخذ يتحدث أمام الجميع ويروى فكرته ، ويأخذ الآراء وكان يفعل ذلك بنية حسنة ، وكأنه يتحدث عن فكرة فلسفية ، أو رواية جديدة من رواياته البديعة التى تملأ عقله ووجدانه ، وكانت النتيجة أن أحد التجار أخذ الفكرة وسبق بلزك لتنفيذها وبنفس الطريقة فشلت جميع مشروعاته الأخرى.

وبعد فشل هذه المشروعات لم يبق أمامه غير الكتابة ، ولكنه كان بحاجة إلى الوقت والصبر لكى يحقق الشهرة والثراء ، كان بلزك يعمل أربعاً وعشرين ساعة ، ويستمر فى العمل ويقاوم النوم مقاومة عنيفة.

فكانت نتيجة هذا الجهد الشاق انهيار صحة بلزك بصورة سريعة ، ولكن بالمقابل أنتج إنتاجاً أدبياً عظيماً فقد كتب فى أقل من ثلاثين عاماً ما يقرب من سبعين رواية وكان أحياناً يكتب الرواية فى ستة أسابيع كما حدث فى إحدى روائعه الروائية وهى " لويس لامبير " التى يقارنها النقاد برواية جوته "فاعست" والفرق هو أن بلزك كتب روايته فى ستة أسابيع أما جوته فقد كتب روايته فى ستين عاماً .

وكانت عبقرية بلزك تكمن فى أنه كان يستطيع أن يكتب خمس روايات كبيرة فى سنة واحدة ، ولها قيمة فنية وإنسانية وأدبية ، عالية، وقد حقق بلزك غزارة الإنتاج ، وارتفاع مستواه فى نفس الوقت فاستحق

مكانته الرفيعة فى الأدب الفرنسى والأدب العالمى.

وفى عام ١٨٥٠م كان بلزك قد وصل إلى قمة الشهرة والمجد وبدأ يجنى ثمار جهده ، وعبقريته ، أثث بيتاً فاخراً فى باريس حقق فيه كل أمانيه ، وقرر أن يتزوج من امرأة بولندية أرستقراطية تدعى " هانسكا " وكانت حبه الأخير ، تزوجته بالرغم من علمها أنه مريض ، وعلى وشك الموت ولم يمض على زواجهما ثلاثة شهور حتى سقط بلزك مريضاً ثم توفى وهو فى الـ ٥١ من عمره، وقال طبيبه : " إنه مات بالذبحة الصدرية ، وأن قلبه كان متعباً بسبب الإرهاق والمبالغة فى شرب القهوة ليقاوم النوم " .

وإذا كان بلزك قد عانى فى حياته إلا أنه ترك وراءه أعمالاً روائية خالدة رسم فيها ما يزيد على ألفين من الشخصيات النادرة التى تصور الصراعات الإنسانية ، وكان أدب بلزك هو العزاء الوحيد عن المعاناة التى عاشها هذا الفنان بين حبه الأول وحبه الأخير.

